معنى ذلك ولا يسأل هؤلاء المجرمون عن ذنوب السالفين، فجعل الهاء والميم على من تقدّم من قارون وأصحابه والقرون السالفة، لأن ذكرهم كان سياق هذا الخطاب فى قوله تعالى **أو لم يعلم أنّ الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا**، ثم قال **ولا يُسأل عن ذنوبهم**، يعنى هؤلاء المجرمون، يعنى مشركى هذه الأمة. وقال أيضا هو غيره أنّ الكفار سألوا فقالوا تُرى ماذا فعل الله تعالى بالقرون الأولى الذين يقص علينا نبأهم، قال فنزلت هذه الآية فهى بمنزلة قول فرعون، **قال فمابال القرون الأولى**، فقال موسى عليه السلام **علمُها عند ربى**، إلاّ أنّ الله عز وجل قد قال فى ذِكْر الحساب بمعنى الجزاء **عطاءً حسابا**، يعنى مجازةً، وقيل كفايةً، بمعنى كفاهم وأحسبهم ذلك، كما قال تعالى **حسْبهم جهنم**، أى كافيهم ذلك .

الفصل السابع والثلاثون

فى الإخلاص

شرح النيات والأمر بتحسينها فى تصريف الأحوال، والتحذير من دخول الآفات عليها فى الأفعال

قال الله الكبير المتعال "**وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين**"، وقال **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، وقال إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى... وقد روينا فى الحديث من طريق أهل البيت عليهم السلام: لا يقبل الله تعالى قولاً إلا بعمل، ولا قولاً وعملاً إلاّ بنيّة. وقال **عمر بن الخطاب** رضى الله تعالى عنه أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرّم الله تعالى، وصِدْق النيّة فيما عند الله عزوجل. فينبغى أن يكون للعبد فى كل شىء نيّة حتى فى مطعمه ومشربه وملبسه ونومه ونكاحه، فإن ذلك كله من أعماله التى يُسأل عنها، فإنْ كانت لله تعالى وفيه، كانت فى ميزان حسناته، وإنْ كانت فى سبيل الهوى ولغير المولى كانت فى ميزان سيآته إذ لكل عبد ما نوى، وإنْ كان ذلك غفلةً وسهواً من غير نية ولا عقْد طوية ولا حسبة، لم يكن له فى ذلك شىء، ولم يجد عمله فى الآخرة شيأ، وكان فيه لا له ولا عليه، وكان ذلك فى الدنيا على مثال الأنعام التى تتصرف عن غير عقول ولا تكليف ولكن بإلهام وتوقيف، وأخاف أنْ يدخل فى وصف من قال اللهّ تعالى «**أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطا**»، أى غفلةً وسهواً، وقيل تفريطاً وتضييعاً، وقيل مقدماً إلى الهلاك. فالنية

الصالحة هى أول العمل الصالح، وأول العطاء من الله تعالى وهو مكان الجزاء، وإنما يكون للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله تعالى له من النيات، فربما اتفق فى العمل الواحد نيات كثيرة على مقدار ما يحتمل العبد من النية، وعلى مقدار علم العامل فيكون له بكل نية حسنة، ثم يضاعف كل حسنة عشر أمثالها لأنها أعمال تجتمع فى عمل. وصورة النية صحة قصد القلب إلى العمل بحسن التيقظ فيه والإخلاص به لوجه الله تعالى، ابتغاء ماعنده من الأجر، فكل عمل كان على علم بهذه النية فهو صالح متقبّل بفضل الله تعالى وبرحمته، لأن صاحبه قد اتقّى الشرْك والجهل والهوى فعمله مرفوع فى الخزائن، مدّخرٌ له الجزاء. وحقيقة الإخلاص سلامته من وصفين: وهما الرياء والهوى، ليكون خالصا، كما وصف الله تعالى الخالص من اللبن فكان بذلك تمام النعمة علينا، فقال «**من بين فرث ودم لبنا خالصا**»، فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصا ولم تتم النعمة به علينا ولم تقبله نفوسنا، فكذلك معاملتنا لله عز وجل إذا شابها رياء بخُلُق أو هوى من شهوة نفس، ولم تكن خالصة، لم يتم بها الصدق والأدب فى المعاملة، ولم يقبلها الله تعالى منّا فاعتبروا.

وروينا عن كتاب **عمر بن الخطاب** رضى الله تعالى عنه إلى **أبى موسى الأشعرى** أنه من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، وكتب **سالم بن عبد الله** إلى **عمر بن عبد العزيز** إعلم ياعمر أنّ الله تعالى عوْنٌ للعبد بقدر النية، فمن تمّت نيته تم عون الله تعالى إياه، ومن قصُرت عنه نيته قصُر عنه من عون الله تعالى بقدر ذلك. وقد قال الله تعالى فى تصديق ذلك «**إنْ يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما**»، فجعل سبب التوفيق إرادة الإصلاح، فذلك هو أول التوفيق من الموفّق المُصلح للعامل الصالح. وقال بعض السلف رأيت الخير إنما يجمعه حُسن النية، ورُبّ عمل صغير تُعظّمه النية، ورُبّ عمل كبير تُصغّره النية. وكتب بعض الأدباء إلى أخيه أخلِص النية فى أعمالك يكفِك القليل من العمل. وقال **داود الطائى** مَن أكبر همّه التقوى لو تعلّقت جميع جوارحه بالدنيا لردّته نيته يوماً إلى نية صالحة. وقال **محمد بن الحسين** ينبغى للرجل أن تكون نيته بين يدّى عمله. وقال **الثورى** كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العلم. وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العلم، ومادمت تنوى الخير فأنت بخير. وقال **زيد بن أسلم** خصلتان هما كمال أمرك: تُصبح ولا تهتم لله تعالى بمعصية، وتمُسى ولا تهتم لله تعالى بمعصية. وكذلك قال بعض السلف فى معناه أنّ نعمة الله تعالى أكثر من أنْ تُحصوها، وأنْ ذنوبكم أخفى من أنْ تعلموها، ولكن أصبِحُوا توّابين وأمسُوا توّابين يغفر لكم ما بين ذلك. وروينا فى الخبر عن بعض المريدين أنه كان يطوف على العلماء

يقول من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى، فإني أحب أن لا تجيء عليّ ساعة من ليل أو نهار إلاّ وأنا عامل من عمّال الله تعالى، فقيل له اعملْ الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهِمّ بعمله فإنّ الهامّ بعمل الخير كعامله. وروينا عن **عيسى** عليه الصلاة والسلام طوبى لعين نامت ولا تهِمّ بمعصية وانتهت إلى غير إثم. وروينا عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم**: مَن همّ بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة، ومن همّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة.

وجاء في الخبر المشهور نية المرء خيرٌ من عمله. وتفسير ذلك قيل إن النية سرّ، وأعمال السرّ تضاعَف. وقيل لأنها غيب لا يطّلع عليها غير الله تعالى. وأيضا فإن الله عز وجل يهبها للعبد خالصة لا يشوبها شيء ولا يدخل عليها الآفات، وأيضا لأنها من شرط العمل حتى لا يصحّ عمل إلاّ بها، وهي تصح بمجردها. وكان **عبد الرحيم بن يحيى** يقول معنى قوله نية المرء خير من عمله يعني إخلاصه في العمل خير من العمل، قال فالإخلاص بغير عمل خيرٌ من عمل غير مخلص. والنية عنده هو نفس الإخلاص، وعند غيره هو الصدق في الحال باستواء السريرة والعلانية. وقد قيل أيضا في معنى قوله نية المرء خير من عمله لأن نية المؤمن دائمة ومتصلة، والأعمال منقطعة، وبالنية خَلَد أهل التوحيد في الجنة، وخلَد أهل الشرك في النار، لدوام نياتهم على التوحيد، ودوام نيات الآخرين على الشرك مدة الدهر. فهذه المعاني كلها على هذا الوجه الذي يقول فيه إنّ معناه أنّ النية خير من العمل. وفيه وجهٌ آخر يكون الكلام فيه على التقديم والتأخير، أي نية المؤمن هي من عمله خير، كأنه قال هي بعض أعماله الخير، فهذا كقوله تعالى« **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها**»، معناه نأت منها بخير، وكما قال «**يسألونك كأنك حفيٌّ عنها**» معناه يسألونك عنها كأنك حفي بهم فأخّر قوله عنها ومعناه التقديم، فيكون هذا على التأويل أن النية من أعمال القلوب، وأنها من أعمال العبد خير كثير. وهذه الأقوال كلها صحيحة، وهي موجودة في النية، ففضلت النية العمل لأن هذه المعاني من صفتها. وقال بعض التابعين قلوب الأبرار تغلي بالبرّ، وقلوب الفجار تغلي بالفجور، والله تعالى مطّلع على نياتهم فيثيبهم بقدر ذلك، فانظر ماهمّك ومانيتك.

وروينا عن الله سبحانه وتعالى في بعض الكتب أنه قال ليس كل كلام الحكيم أتقبل، ولكني أنظر إلى همّه وهواه، فمن كان همّه وهواه لي جعلت صمته ذِكْراً، ونظره عِبْراً. وهذا داخل في عموم الخبر الذي رويناه عن **نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم** إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. وسئل **سفيان الثوري** هل

يؤاخذ العبد بالنية، قال نعم، إذا كانت عزما أخذ بها. وفى الخبر إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة فى صحُف مختمة، فتُلقى بين يدى الله تعالى فيقول القوا هذه الصحيفة فإنه لم يُرد بذلك وجهى، ثم ينادى الملائكة اكتبو له كذا واكتبوا له كذا، فيقولون ربنا إنه لم يعمل شيأ من ذلك، فيقال إنه نواه. وفى الحديث الناس **أربعة**، رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه فى ماله، فيقول رجل لو آتانى الله تعالى ما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الخير سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط بجهله فى ماله، فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما فى الوزر سواء. ألا ترى كيف شَرَكه بحُسن النية فى محاسن عمله، وشركه الآخر بسيّء النية بنيتّه فى مساوىء عمله؟ وكذلك فى حديث **أنس بن مالك** لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى **غزوة تبوك** قال إن بالمدينة أقواما ماقطعنا وادياً، ولا وطئنا موطأ يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقةً، ولا نصبنا نصبا، ولا أصابتنا مخمصة، إلاّ شركونا فى ذلك وهُمْ بالمدينة، قالوا وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا؟ قال حبَسهم العذر فشركونا بحُسن النية. وقال بعض السلف صلاح الأعمال وفسادها بصلاح النيات وفسادها. وكذلك جاء فى الخبر وهو أصل من أصول الدين قوله **صلى الله عليه وسلم** إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوج بها فهجرته إلى ماهاجر إليه، فأخبر أنْ لا عمل إلاّ بالنية، ثم جعل لكل عبدٍ نية، وحكم عليهم بها وجعلها نصيبهم من الله تعالى، وفّق ذلك لهم أو لم يوفقه. وفى حديث **ابن مسعود** مَن هاجر يبتغى شيئا فهو له، فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر **أم قيس**. وفى حديث **أبى عبادة** عن **النبى صلى الله عليه وسلم**: من غزا وهو لا ينوى إلاّ عقالاً فله ما نوى. وقال إنى استعنت رجلاً يغزو معى فقال لا حتى تجعل لى جُعلا، فجعلتُ له، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم، فقال له ليس له من دنياه وآخرته إلاّ ما جعلت له.

وروينا فى **الإسرائيليات** أن رجلاً مر بكثبان من رمل فى مجاعة، فقال فى نفسه لو كان لى هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس، قال فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم أنْ قل له إنّ الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حُسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدّقت به. وفى أخبار كثيرة مَن همّ بحَسَنة فلم يعملها كُتبت له حسنة. وفى حديث **عبد الله بن عمر** مَن تكنْ الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيْه وفارقها أرغب ما يكون فيها، ومن تكن الآخرة نيته جعل

الله غناه فى قلبه، وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها. وحديث **أم سلمة** ذكر النبى **صلى الله عليه وسلم** جيشاً يُخسف بهم فى البيداء، فقلت يا رسول الله يكون فيهم المكرَه والأجير،فقال يُحشَرون على نياتهم. وفى حديث **عمر** مثله، سمعتُ **رسول الله صلى الله عليه وسلم** يقول إنما يقتتل المقتتلون على النيات. وفى حديث **فضالة** من مات على مرتبة من المراتب بُعث عليها. وعن **جابر** عن **رسول الله صلى الله عليه وسلم** يبعث كل عبد على ما مات عليه. وفى حديث **الأحنف بن قيس** عن **أبى بكر** إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول، قال لأنه أراد قتل صاحبه.

والنية عند قوم الإخلاص بعينه، وعند آخرين الصدق، وعند الجملة أنها صحة العقد وحُسن القصد، وهى عند الجماعة من أعمال القلوب مقدّمة فى الأعمال وأوّل كل عمل. وقد قال الله تعالى «**واذكروا الله ذِكْراً كثيراً**»، قيل فى التفسير خالصاً، فسمىّ الخالص كثيراً، وهو ما خلصت فيه النية لوجه الله تعالى. ووَصَفَ ذِكْر المنافقين بالقلّة فقال «**يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلا**»، يعنى غير خالص. وسميت سورة «قل هو الله أحد» **سورة الإخلاص** لأنها فى ذكر صفات الله تعالى وحده، لا يختلط بذكره جنة ولا نار، ولا وعد ولا وعيد، ولا أمر ولا نهى. وكذلك قيل **سورة التوحيد** إذ لا شريك فيها من سواه.

وأول سلطان على القلب عند فساد النية هو العدو، فإذا تغيرتْ من العبد نيته طمع فيه العدو فيتسلط عليه. وأوّل ارتداد العبد عن الاستقامة ضعف النية، فإذا ضعفت النية قويت النفس فتمكن الهوى، فإذا قويت النية صحّ العزم وضعفت صفات النفس. وقد ضرب **النبى صلى الله عليه وسلم** مثل القلب بالملك، والجوارح جنوده، قال فإذا صلح القلب صلح الجسد، وإذا فسد فسد الجسد. معناه إذا صلحت للعبد نيته دامت للعبد استقامته، وإذا خلص وصَفَا من شوْب الكدر والهوى خلصت الأعمال من الرياء وصفت من الشهوات والأهواء، وإذا فسدت نيته بحب الدنيا فسدت أعمال الجوارح بحب المدح والرياء. وروينا فى خبر مقطوع من تطيّب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيّب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة. وليس الطيب من أكبر المأمور به، ولا من الإثم المنهى عنه، وإنما لصاحبه منه نيته، فإن كانت نيته اتّباع سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإظهار النعمة لله تعالى كان بذلك مطيعا، وكان له ثواب ما نواه، وإنْ تطيّب لغير ذلك كان به

عاصياً لاتباعه هواه. وحدّثونا أن بعض الفقراء كان يصحب **أبا سعيد الخرّاز** فكان يخفّ بين يديه في حوائجه ويخدم الفقراء ويسارع فى قضاء حوائج أبى سعيد وأصحابه، قال فتكلم أبو سعيد يوما فى إخلاص الحركة فوقر ذلك فى قلب الشاب، فكأنه أخذ الإخلاص والتفقد لحركته وخدمته فترك ما كان يعمله من قضاء حوائج أبى سعيد في الخفة بين يدى إخوانه حتى أضرّ ذلك بأبى سعيد، فقال له يابنى قد كنت تسعى فى حوائج إخوانك ثم قطعت ذلك فما السبب؟ فقال يا أستاذ إنك تكلمت فى الإخلاص، وإنى خشيت أن تكون أفعالى مدخولة فتركتها. قال أبو سعيد لا تغفل أنّ الإخلاص لا يقطع المعاملة، ولا ينبغى للعاقل أن يترك العمل لأجل الإخلاص فيفوته الإخلاص والعمل، ولم أقل لك أترك ما أنت عليه إنما قلت لك أخلص فيه، فإنّ طلبك للإخلاص قد قطعك عن عمل البرّ وقد أضرّ ذلك بنا. فارجع إلى ما كنتَ فيه وأخلص فيه لله تعالى... فينبغى للعبد أن يكون له نية خالصة فى جميع تصرّفه فى حركته وسكونه وسعيه وتركه، فإنّ الحركة والسكون اللذيْن هما أصلا الأعمال من أعماله التى يُسئل عنها فيحتاج إلى النية والإخلاص فيهما. وقال بعضهم القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من حركات الأعمال بالصلاة والصيام ونحوه. وقال **الأنطاكى** إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح. وروى عن **علىّ** عليه السلام من كان ظاهره أرجح من باطنه خفّ ميزانه، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثَقُل ميزانه يوم القيامة. وروى عن **الحسن في** تفسير قوله تعالى «**وآتيناه أجره فى الدنيا**»، قال نيته الصادقة اكتسب بها الأجر فى الآخرة.

وقد تلتبس الفضائل بالمناقص لدقة معانيها وخفى علومها كصلاة العبد النفل وهو يحسب أنه الأوجب. من ذلك أنّ رجلاً كان يصلى فدعاه **رسول الله صلى الله عليه وسلم** فلم يجبه، فظن أنّ وقوفه بين يدىّ الله تعالى بالغيب أفضل له، فلم سلّم جاءه فقال له صلّى الله عليه وسلّم ما منعك أن تجيبنى حين دعوتك، فقال كنت أصلى، فقال ألم تسمع قول الله تعالى **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم؟** فكانت إجابة النبى صلى الله عليه وسلم أفضل له لأن صلاته نافلة وإجابة الرسول صلّى الله عليه وسلم فرض عليه. وقال بعضهم **من كان طلبُ الفضائل أهمّ إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع ، ومن شغل بغيره عن نفسه فقد مُكرّ به.** وقال **سفيان** إنما حُرِموا الوصول بتضييع الأصول، فأفضل شيء للعبد معرفته بنفسه، ثم وقوفه على حده، ثم إحكامه لحاله التى أقيم فيها، ثم قيامه بعمله الذى فُتح

له، فيبتدىء العمل بما افتُرض عليه بعد اجتنابه ما نهى عنه مبلغ علمه ووسع وجده، لا يشتغل بطلب فضل حتى يُحكم عمل فرض، لأن الفضل ربح لا يصح إلاّ بعد رأس المال، ولكل فضل آفة قاطعة، فمن سلم منها حاز فضله، ولكل أمر نفيس مؤنة ثقيلة فمن تحملها أدرك نفيسها، ومن تعذرت عليه السلامة فهيهات أن يصير إلى فضل كرامة، ومن لم يصبر على تحمّل غرامة لم يدرك علو مقامه.

وقد يلتبس التكلّف بالإخلاص، وإظهار العلم بظهور التزيّن به - قال **الثورى** رحمه الله زيّن نفسك بالعلم ولا تَزّين به، أى أدّبها لله عز وجل فتكون زيناً فى أوليائه، ولا تتزين به عند الناس ليمدحوك عليه ويلتبس الاختبار بالاختيار، فالاختبار ما كان عن حاجة وتطرّقت به إلى الله عز وجل، والاختيار مازاد فى الشهوة وكان سلّما إلى الخلْق، كالتباس ستر العورة من الثياب بالفاخر منها للنعمة والتكثر من الأسباب. وقد يتطوع العبد بعمل يضيّع به فرضا، وإحكام الفرض لجواز السلامة هو الفضل. وقد روى إذا دعى أحدكم للطعام فإنْ كان مفطراً فليجب، وإنْ كان صائما فليقل إنى صائم، فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أنّ الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وجْداً أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثر ذلك فى قلب أخيه، لتفضيل العمال على الأعمال، إذ الأعمال موقوفة على العامل، فإنما يعُطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء عز وجل على غيره فى العمل الواحد، فدّل ذلك أن المؤمن أفضل من العمل، فقيل له ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك، فهو خير من إخفاء العمل مع وجْد أخيك عليك، لأن أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك فلم تجبه ولم تعتذر إليه عذراً بيّناً يقبله منك ويعرفه، شقّ عليه ذلك إن كان صادقاً فى دعائك. وقال **سرى السقطى** ركعتان تُخلصهما خيرٌ لك من أنْ تكتب سبعين حديثا، أو قال سبعمائة حديث.

الفصل الثامن والثلاثون
فى ترتيب الاقوات بالنقصان منها او بزيادة الاوقات

أما **الأقوات** فقد كان بعض السلف يُنقص منها حتى يردّ النفس إلى أقل قوامها، فمن أراد هذا الطريق فليُنقص فى كل أكلة ربع سُبع رغيف فيكون تاركا لرغيف فى شهر برياضة وتمهل، فلا يؤثر النقصان عليه شيأ حتى تقف النفس على الأكل فى ثلث بطنها، وهو ثلث أكله المعتاد، **وهذا طريق المريدين**. ومن العلماء من لم يكن يعرض للأقوات ولكن يعمل فى زيادة